شدة الاحساس

بأشياء وسواد معينة

والاستهداف بسببه لحالات مرضية متنوعة

يعرف كاتب هذه السطور سيدة اميركية عالية الثقافة حصيفة الرأي شديدة العناية بشؤون معيشتها ومعيشة اهل بيتها ، تقطن ضاحية المعادي قرب القاهرة ، ولكنها مضطرة الى مغادرتها مع اغتباطها بكل ما حواليها لانها تصاب كل سنة ، عند ما تبسم الارض في الربيع ، وتخرج الازهار من اكمامها بمرض يعرف « بحمى التبن او القش » ، فتلتهب جفونها وتدمع عيونها ويميل انفها وتصاب احياناً بضيق التنفس . وليس لذلك سبب ظاهر . فهلها يأكلون ما تأكل ويشربون ما تشرب ويتنفسون الهواء الذي تتنفس ولا يصابون بما تصاب . وسر هذا الامر ان هذه السيدة شديدة الاحساس بحبيبات اللقاح التي تتطاير من ازهار الحقل ، فتستهدف لهذه الاعراض

وقد عرف كذلك سيدة أخرى كانت اذا اكلت الكركند الثالث والسرطان البري (Lobster) أو السرطان (Crab) تصاب بما يشبه التسمم مدة اربع وعشرين ساعة ، وقد اكلتهما هنا وفي اوربا وفي لبنان وكانت تصاب دائماً بالاعراض نفسها

في سنة ١٨٣٩ كان العالم الفسيولوجي الفرنسوي « ماجندي » Magendie يجرب بعض التجارب بالكلاب فحقن كلباً بقدر صغير من زلال البيض فلم تبد على الكلب آثار تدل على انه اصيب بضرر من هذه الحقنة . ثم بعد فترة وجيزة حقن الكلب ثانية بالقدر نفسه من زلال البيض فمات فجأة فتحير « ماجندي » في ما رأى لانه كان يعلم ان زلال البيض ليس سماً ومع ذلك فعل السم في الكلب فقضى عليه

بعد ذلك بربع قرن ذهب حدث من الاحداث الى اجتماع في الريف ، وبعد ما تعشى اكل قطعة من الحلوى التي قدمت للزوار وكانت مصنوعة من الحنطة السوداء ، وما كاد يزدردها حتى احس ناراً تأجج في حلقه ومعدته . ثم احمرت مقلتاه وتورمت وجنتاه وظهرت على شفتيه اورام حمر . فساوره خوف عظيم ، وعزم ان يسير الى بيته على قدميه . وبعدما سار مسافة ثلاثة اميال في الثلج خفت وطأة الاعراض التي احس بها وعندما وصل بيته كان قد

ثبت في ذهنه ان الحلوى المصنوعة من الحنطة السوداء هي سبب اصابته. وبعد سنوات اكل هذا الفتى كعكة مصنوعة من الذرة فاصيب بالاعراض نفسها . فلما تحرّى المسألة ظهر ان الذرة كانت قد طحنت في مطحنة طحنت فيها الحنطة السوداء فاتصلت حبيبات منها بدقيق الذرة

وانقضت سنوات ، وبلغ الفتى سن المراهقة . وحدث لهُ ما حمله على الاعتقاد ، بأن دقيق الفلفل الاسود يسبب نفس الاعراض التي يسببها دقيق الحنطة السوداء ، اذا ذرّهُ على طعامه. ولكنهُ وجد انهُ اذا اشترى حبات الفلفل وسحنها في بيته وذرّها على طعامه ، لم يصب بها . فحمله ذلك على الظن بأن دقيق الفلفل الاسود الذي يباع في الاسواق مدخول فيه ، فجعل يتقب ويبحث حتى اتصل بمدير احدى الشركات التي تحضر دقيق الفلفل وتبيعهُ وعرف منهُ ان شركتهُ تبتاع قشور الحنطة السوداء وتسحنها وتخلطها بدقيق الفلفل

ولما بلغ الخامسة والاربعين من العمر ذهب الى مستشفى جامعة جونز هبكنز . وكان العلماء في خلال ذلك قد جمعوا حقائق كثيرة عن هذه الظاهرة الغريبة ، فحضروا نقوعاً من دقيق الحنطة السوداء ، وخدشوا ذراعه ووضعوا على الخدش قطيرات من النقوع ، فما انقضت عليه خمس عشر دقيقة ، حتى صاح « ان الحنطة السوداء قد شرعت تعمل فعلها » وجعل يشكو ضيقاً في الصدر وأخذ يسعل كما يفعل المربوُ (المصاب بالربو Asthma) وظهرت على وجهه وجسمه وأطرافه بقع حمر ، لم يسعهُ الاَّ ان يحكها حكًّا عنيفاً

ثم استرعت هذه الظاهرة انظار طبيبين من اطباء فينا هما كلمنس فون بيركه Pirquet وبلا شيك Schick . ولا يخفى ان فون بيركه اصبح في ما بعد من اشهر الاطباء المتوفرين على امراض الاطفال في العالم . اما شيك فاستنبط الكاشف المنسوب اليه لامتحان الذين يشتبه في اصابتهم بالدفتيريا . كان هذان الطبيبان يعالجان اطفالاً مصابين بالحمى القرمزية بمصل جديد استنبط حديثاً لعلاج هذا المرض . وكان لا بدَّ في هذا العلاج من استعمال مقادير كبيرة من المصل . فلاحظ ان بعض الاطفال اصيب فجأة بحمى وتشعيرة وقفط حمر على الجلد وألم في المفاصل بعد انقضاء نحو اسبوعين على الحقنة . فواليا البحث ووجدا ان الاطفال الذين لم يصابوا بهذه الاعراض بعد الحقنة الاولى ، كانوا يصابون بها حتماً بعد الحقنة الثانية . فأطلقا على هذه الحالة «مرض المصل» واسماء اخرى منها اللفظ Allergy وبه تعرف في رسائل الاطباء

ومن ضروب الربو ما يعرف « بربو الحياد » والذين يصابون به تبدو عليهم اعراض الربو عند ما يكونون على مقربة من جواد او عند ما يتصل بهم شعر من شعره او غبار كان ملتصقاً به على نحو ما يصاب بعض الناس « بحمى التبن » عند ما تنثر حبيبات اللقاح الباقي في الهواء . فهؤلاء الناس من المضلات التي يواجهها الاطباء عندما يمرضون ويقتضي المرض حقنهم بمصل ما ،

لان طائفة كبيرة من المصول تولد في دم الخيل . فاذا أصيب احدهم بالدفتيريا وحب حقنهُ بالمصل المضاد لها ، وهذا المصل يولَّد في دم الخيل ، فيصاب المحقون باعراض الربو . ثم إن ارتقاء وسائل النقل بقوة البخار المحركات الذاتية كقطارات السكك الحديدية والسيارات ، بعد المركبات التي تجرُّها الخياد ، قد أزال عاملاً من عوامل هذا الضرب من الربو ولكن تقدم الطب في استعمال المصول عرَّض بعض الناس لهُ من جديد

ومن الناس من يتأثر تأثراً خاصًّا بقربه من الغنم أو الخنازير والكلاب والهررة والارانب والجرذان والدجاج والبط والاوز أو بأكله قطعاً منها على نحو ما يتأثر بعضهم بالخياد . بل أن بعض الناس يتأثر بريش الدجاج فلا يكاد ينام على وسادة محشوَّة بهذا الريش حتى يصاب بنوبة من الازم الشديد

ويمكن ان يقال بوجه عام أن المواد التي تسبب هذه الاعراض هي انواع من الطعام ، وحبيبات اللقاح والغبار ، وشعر الحيوان وقشوره وجذور الاوريس (وهو نبات اسمهُ العلمي ايريس فلورنتينا وايرس جرمانيكا ويستعمل دقيق جذور الاول او نشاؤهُ في تعطير بعض مستحضرات الجمال بعطر بنفسجي) وبعض البكتيريا . ويذهب بعضهم الى أن البرد والحرّ قد يؤثران في الجسم فتتحل بعض المواد الزلالية في الجسم فتصبح من طبقة المواد « الاليحية » . وتقسم المواد التي تحدث هذه الاصابات الى ثلاثة أقسام عامة منها ما يتصل بانسجة الجسم عن طريق الاكل واخرى باللمس وغيرها بالاستنشاق

وهذا يعود بنا الى المثل الذي ضربناه في مستهل هذا المقال . لعني «حمى التبن Hay Fevers» وهي نادرة في مصر . فقد وصف الطبيب الانكليزي جون بوستوك Bostock هذا المرض أولاً سنة ١٨١٩ وكان يصاب به في الصيف فاطلق عليهِ اسم « زكمة الصيف » وانقضى القرن التاسع عشر والظن الراجح انهُ مرض نادر

وكان الطبيب وليم دنبار Dunbar اول من درسهُ دراسة علمية في اواخر القرن التاسع عشر وكان رأيه انهُ نتيجة من نتائج الحضارة الحديثة . قال أن العالم في الامم غير المتحضرة لا يصابون به ، او تندر اصابتهم به حال أن الامم البالغة شأواً عالياً من الحضارة تكثر فيها الاصابة به . وبين ان الاصابات به في اميركا الشمالية كثيرة . وقد كانت قبل نصف قرن نادرة فاصبحت الآن مألوفة ويبلغ عدد حوادثها نحو المليون كل سنة

الاَّ أن الطبيب الانكليزي تشارلز بلاكي بدأ تجاربهُ في منتصف القرن الماضي ، أي نحو اربعين سنة قبل مباحث دنبار ، فثبت لهُ أن حبيبات اللقاح التي تسبب هذا المرض ، وكان بلاكي نفسهُ معرضاً للاصابة به ، فجمع حبيبات اللقاح ووضعها في عينيه وأنفه فاحدث فيه اعراض هذه الحمى . وكان العلاَّمة الالماني هلمهلتز معرضاً للاصابة به كذلك ، فأخذ بعض مفرزات أنفه وهو مصاب أعراضه وفحصها فوجد فيها بكتيريا لا تكون فيها عندما يكون سليماً . وكذلك ظلت النظرية

البكتيرية في سبب هذا المرض سائدة سنين متمادية ، لان مقام هيبوكراتس الطبي كان في الطبقة العليا

الا ان دنبار ، مع ذهابه في تفسير هذا المرض الى اسلافنا الى الحضارة ، بدا له ان في اقوال بلاكلي شيئاً من الصحة . فجعل يجمع حبيبات اللقاح التي يجدها في الهواء المرضين لحمى التبن . فثبتت له الصلة بين الحبيبات والاعراض

واعم أنواع هذه الحمى ينشأ عن لقاح نباتين احدهما يعرف باسم العرد الذهبي (وهذا ترجمة الاسم الانكليزي Golden-Rod كما جاء في معجم شرف وهو خردسرغون او دَسْنس : يونانية في معجم اسماء النبات لعيسى) وكلاهما ينثر حبيبات لقاحه في الصيف . وقد أثبت البحث ان حبيبات اللقاح في النبات الثاني (Ragweed او عشب الخرقة : شرف) يمكن ان تنثر الى مسافات خمسة عشر ميلاً وان نبتة واحدة منها تستطيع ان تقذف ملايين من الحبيبات في اليوم

وهناك نوع آخر من هذه الاصابات يعرف بالحساق او الحساق وهو شبه الجدري يتفط به البدن ويعرف عادة باسم «الشري» . واعراضه ظهور بقع وارمة حول العينين وفي الشفتين واليدين والبدن . ولو اقتصر عليها لهان الامر ولكنه قد يحدث في الحلق والحنجرة فيفضي الى الموت اختناقاً

وبعد فما هو تفسير هذه الاصابات ؟ ليس ثمة رأي واحد يعلل جميع ظاهراتها . ولكن منها رأي فوغان (Vaughan) فهو يقول ان الخلايا في الحيوان السوي تخصص . فاذا دخل الطعام الجهاز الهضمي ووصل الى الامعاء افرزت خلايا الامعاء مفرزات خاصة تخمّر الطعام وتحلله . فاذا حقن احدهم تحت الجلد بمصل مستمدّ من دم جواد ، عمدت الخلايا المختصة الى افراز خمائر تحل مادة المصل . فاذا افرزت مقادير كبيرة من هذه الخمائر بعد الحقنة الاولى كان الجسم مستعدًّا لحل هذه المادة عند ما يحقن بها ثانية ، فتتولد مواد سامة تحدث اعراض هذه الاصابات . ويقول بعضهم أن مادة الهيستامين Histamine — وهي مادة أثبت الطبيب الانكليزي ديل H. H. Dale تكثر في معظم انسجة الجسم — هي التي تسبب هذه الاعراض . والهيستامين نفسه اذا حقن في مقادير يسيرة سبب الاورام وهبوطاً في ضغط الدم وبعض اعراض الصدمة التي تمتاز بها الامراض « الاليرجية » . ومن بواعث القلق — لولا حكمة الخلق — ان يعرف الانسان ان في انسجته من هذه المادة ما يكفي لقتل عشرات من الناس

ويقال كذلك أن المواد « الاليرجية » اذا دخلت مقادير كبيرة منها الجسم او تجزت الانسجة عن حل ما يدخل الجسم بالسرعة اللازمة سببت اعراض الاصابات التي تقدّم ذكرها . ويعزى عجز الانسجة عن حلّها بسرعة الى نقص في بعض مفرزات الغدد الصم . فبعضهم يذهب الى ان النقص هو فقط في مفرزات الكظرين . وآخرون الى انه نقص في مفرزات الحلوة . وثمة تقارير طبية مختلفة وصف فيها استعمال خلاصات الدرقية او الكظرين او البيضين في علاج هذه الحالات